

العاطفة

واثرها في التقدير الأدبي

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

لما وضع أرسطو مذهبه في النقد الأدبي ، أقامه على المنطق والفكر ، واعتبر العقل وحده كل شيء في إدراك الحقيقة الفنية النافمة^(١) ، يكشف ويوضح ، ويقيس ويضبط ، ويتمس ويطل ، ويترن من وراء ذلك كله إلى جملة من الضوابط والقوانين ، يراها سالحة في كل زمان ومكان لقياس الفن ، وتقدير الأدب ، وفهم الجمال . فكان النقد عند هذا الفيلسوف الخالد ، باب من الفلسفة ؛ وبحث في العلم ، فهو يعالجه بالقياس الثابت ، والبيان للمدرك ، والخبر المتواتر ، والشاهد اليقيني ، فأما الحس فلا اعتبار له عنده ، ولكنه — كما يقول الميرمي — زجر طير هي خليقة بالكذب ، فان صدقت فباتفاق !!

هذا المذهب الذي وضعه أرسطو كان مثار خلاف بين النقاد من بعده ، وخصوصاً النقاد الفرنسيين الذي نهلوا من مراشف الثقافة الناقمة ، فجاءه من ورائه يقولون العقل لحس ، وجماعة يذهبون إلى أكثر من ذلك فيقولون : العقل والعاطفة . والذين قرأوا تاريخ الآداب الفرنسية يعرفون إلى أي حد كان النقاد في الطور الأول يمجدون العقل ويذعنون لمنطقه ، حتى لقد حاول « ماليرب » أن يخضع له قرائح الشعراء وعواطفهم ، ثم أتى من بعده « بوالو » الذي الفطن^(٢) فتح العقل المرتبة الأولى في الصفات البشرية ، واعتبره مصدر كل أثر ذي شأن في النقد والآداب . ولكن لما جاء « شاتوبريان » انتهج في النقد نهجاً أحقل بالفن فقال : إن العقل وحده لا ينتج أعمالاً عظيمة ، وإن الناقد الحقيقي من حكم عقله وفنیه ، واستئمل منطقاً وعواطفه معاً في فهم ما يقرأ . فلما كان العهد الأخير قامت المناظرة حادة عنيفة بين فردينان برونتيير وأمانول فرانس حول المسكات

(١) النافع والجميل : لفظان مترادفان عند سقراط !!

(٢) هكذا وصفه بول فاليري . .

المتبرة في النقد فقال برونتيير : العقل . . . ثم العقل . . . ثم العقل . . . العقل . وقال فرانس : كلا ! لا يمكن أن يكون فن الأدب غير عاطفي ، وكذلك نقده . لأن الفن ذاته عاطفة ، وكاذبون هم أولئك النقاد الذين يزعمون أنهم قادرون على انتقاد الأدب وتقديره دون عواطفهم ! وعندى أولئك أسخف من ناقد يتخذ مقاييس الألفاظ والأوزان في نقد قطعة فنية ننخ فيها صاحبها من عواطفه ، واعتصرها من روحه وإحساسه ، فأن المشاكل الخفية في الأدب والنقد لا يجملها علم النحو والصرف ، ولا نشرحها المعاجم وأوضاع اللغة ، ولكنها في حاجة إلى تلك العاطفة الملونة الفياضة التي لا تميدها فواصل وحدود ، ولا تمدها أبعاد وتخوم !!

والواقع أننا نستبد بعواطفنا كثيراً ونجد الحق وما هو ثابت من باميس الحياة إذ نندفع في تيار أولئك الواقعيين فنعتبر العقل كل شيء في تحليل كل ما نرى من المظاهر والظواهر ، حتى ما يتصل بميلونا وعواطفنا ؛ فأن هناك القلب يجب أن نجمل له اعتباراً كبيراً في شؤون الحياة إلى جانب العقل ، ويجب أن نتقدم بأن له منطقاً كمنطق العقل إن لم يكن أدهف وأدق ، وهو وحده الذي يشمرنا في رحلة الحياة الشاقة ببرد الراحة ، ويقع من نفوسنا للاعبة موقع الماء العذب من نفس الصادي في البهاء القاحلة . ولا شك أننا لو طارعتنا هؤلاء الناس وجعلنا العقل كل شيء لصارت الحياة جحيماً لا تطاق ، ولفررنا من شقاها كما يفر بعض الناس في هذه الأيام بالموت والانتحار ، بل ولتردنا على كثير من النظم والأوضاع والنرائح الطيبة النافمة التي تكفل السعادة للمجتمع ، والتي لا يمكن أن يعجزها أولئك الواقعيون الماديون أنفسهم . وأنت — أبتاك الله — تأمل في نفسك ، وانظر فيما يحف بك من للنظم الاجتماعية ، والقبود الثقيلة التي تربطك بالمجتمع الذي تعيش فيه ، والسلاسل والأغلال التي تشغل جسدك وتنقض ظهرك ، من واجبات نحو الأسرة ، والأب ، والأم ، والزوجة ، والوطن ، والدين ، والتقاليد ، وفكرات الشرف والمرض ، وكل ما إلى ذلك ، ثم استسلم إلى العقل وحده وانزل على حكمه في فهم تلك الأمور عاصمها ، تجده يبيحك جواباً لا يرضاه العقل نفسه ، لأن الطبيعة قد خصت الانسان

إلى أن يقول :

وأولادنا مثل الجوارح أيها فقدناه كان الفاجع البين الفقد
لكل مكان لا يسد اختلاله مكان أخيه من جزوع ولا جلد
هل العين بمد السمع تكني مكانه
أو السمع بمد العين تهدي كما يهدي
تكات سروري كله إذ تسكلته
وأصبحت في لذات عيشي أبا زهد

إلى أن يقول :

محمد ا مائىء توم سلوة
لفنى ، إلا زاد قلبى من الوجد
أرى أخويك الباقين كليهما
يكونان للأحزان أوري من الزند
إذا لعبا في ملعب لك لدمعا
فؤادى بمنزل النار عن غير ما قصد
فا فهما لى سلوة بل حرازة

يهيجانها دونى وأشقى بها وحدي
فكنا نجح على أنها خير ما قيل في للشعر العربي في رثاء
ولد ، إلا رجلا لا بأس باطلاعه كان يقول : ولكن أحسن من
هذا قول ابن نباتة في رثاء ابنه :
قالوا فلان قد جفت أفكاره نظم القريض فما يكاد يجيبه
هيات نظم الشعر منه بعدما سكن التراب وليده وحببيه
وقوله فيه :

ياراحلاً من بمد ما أقبلت غايل للخير مرجوء ا
لم تكتمل حولاً وأورتني ضعفاً « فلا حول ولا قوة »
وجعل يعجب من « وليده وحببيه » التي فيها تورية
بالبحر وأبي تمام ا ويستظرف قوله « فلا حول ولا قوة »
ويقول : إن في هذا المعنى حسناً وقد استغرب المقاد
ذلك الاستحسان من ذلك الرجل الذي « لا بأس باطلاعه »
وعجب له كيف يرفع ابن نباتة في شموذذ والأعيبه على ابن الرومي
في لوعته وأساه (١) ؛ وعندى أنه لا وجه للعجب والاستغراب ،
لأن ذلك الرجل وإن كان « لا بأس باطلاعه » إلا أنه — على

بشيء يمتلك ناصية عقله ويتحكم فيه التحكم كله ، شيء أت من
الناحية الروحية القلبية التي هي مصدر العواطف والمشاعر (١) ،
فالإنسان — كما يقول المقاد — لا يجي بالمقل وحده ، ولا يفهم
بالمقل وحده ، ولكنه يجي بالحياة التي هي مجموعة من الحس
والفريرة والمطف والبداية والخيال والتفكير . فانت إذا أردت
أن « تفهم » إنساناً فليست كل وسائلك إلى فهمه أن تسلط
عليه ملكة التحليل والتعليل ، بل أنت مشترك في فهمه بخيالك
وحسك وغيرتك وتفكيرك وعطفك وجميع أجزاء حياتك ،
وشأنك في فهم الكون كشأنك في فهم الإنسان أو فهم أي شيء
من الأشياء وخاطرة من الخواطر . فقولاك « تفهما » مرادف
لقولك تحسها وتخيها وتشمها ببطمك وبديمتك وتفكيرك .
ولأن تحس ما يفتني لك عمله دون أن تقوى على تعليل ذلك خير
لك وألف خير من أن تمال وتحمال وأنت عاجز عن العمل
والاحساس (٢)

وإذن فليس من الصواب أن تتخذ العقل وحده طريق
إدراك وفهم ، وأداة تقدير وحكم ، وإنما الواجب أن نستخدم في
ذلك جميع حواسنا وعواطفنا وكل ما لدينا من المواهب والمكاتب .
وإذا كان هذا من اللازم بالنسبة لاعتبارات الحياة ومسائل العلم ،
فأنه لا شك أزم بالنسبة لتقدير الأدب الذي هو قبض العواطف ،
وذوب المشاعر ، ورسالة الروح ، ومن ثم تعلم سر الفشل الذي
يحيق بأناس يحملون أنفسهم على معالجة الأدب ، ويبيحون
لضائرهم القضاء في مسائله وهم أجلاف فلا ظ قد سلبوا كل إحساس
وكل عاطفة . ولقد حكى المقاد فقال : كنا منذ أيام نتطرح
قصيدة ابن الرومي في رثاء ولده « محمد » وهي القصيدة التي
يقول فيها :

طواه الردي عنى فأضحى مزاره يبيداً على قرب قريباً على بمد
لقد أجزت فيه المنايا وعييدها وأخلفت الآمال ما كان من وعد
ألح عليه للزف حتى أحاله إلى صغرة الجادى عن مرة الورد
وظل على الأيدي تساقط نفسه

وبذوي كما بذوى القضيبي من الرند

(١) راجع ما كتبه في الرسالة (٢٤٠) وكتاب بين الدين والعلم ترجمة

اسماعيل مظهر

(٢) الساعات ص ٢٣٩

ماهو واضح من شأنه - لم يرزق الأحساس الفني ، والماطفة
الفياضة التي تفتح له آفاقاً من الفهم ، وتهيء له الإدراك والنظر
في الأدب وماهو بسبيل الأدب من مظاهر الفن والجمال ، فليس
من الغرابة أن يخطيء ذلك الرجل في التقدير الأدبي ، وأن
يسف هذا الإسفاف البين في الحكم على الشعر ، ولكن من
الغرابة أن يباح له النظر في الأدب ، والحكم على أقدار
الأدباء ، ووضعهم فيما هو جدير بهم من المكانة الفنية ، وما هو
من أهل ذلك ولا عنده أدابة من الطبع والحس والماطفة وبشاشة
الروح . وكأن الجاحظ كان يقرر هذا المعنى إذ يقول : طلبت علم
الشعر عند الأصمى فوجدته لا يعرف إلا غريبه ، فرجعت إلى
الأخفش فالفنته لا يتقن إلا إعرابه ، فسقطت على أبي عبيدة فرأيت
لا ينتقد إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب ، فلم أظفر
بما أردت إلا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن
عبد الملك الزيات . وصدق أبو عثمان ، لأن أدباء الكتاب أدق
إحساساً ، وأوفى شعوراً ، وأرهف ماطفة ، فهم أقدر على اختراق
ممالك الوجدان والاحساس بيهال الآثار الفنية ، والصور الذهنية
البرسومية ، فيكون بين الناقد والقائل تجاوب روي ، وامتزاج
في الأحاسيس ، وهذا هو طريق الإدراك الصحيح ، والتقدير
الحق ، وكأني به الطريق الذي ينشده الفنانون أنفسهم ، فقد طلب
«بودلير» في الناقد أن يكون مرهف الماطفة ، دقيق الاحساس ،
ينتقد بانفعال ، لأن الافعال يقرب بين الأمرجة ويسر بالادراك
وكذلك اشترط الباحث في نقد الشعر أن يكون من شاعر مارس
الفن ، إذ سأله عبيد الله بن طاهر فقال : يا أبا عبادة ! معلم أشعر
أم أبو نواس ؟ فقال : بل أبو نواس لأنه يتصرف في كل طريق ،
وينتويع في كل مذهب ، إن شاء جد ، وإن شاء هزل ! ومسلم
يلزم طريقاً واحداً لا يتعداه ، ويتحقق بمذهب لا يتخطاه . فقال
له عبيد الله : إن أحمد بن يحيى ثعلباً لا يوافقك على هذا ! فقال :
أيها الأمير ! ليس هذا من علم ثعلب وأضرابه ... وإنما يعرف
الشعر من دفع إلى مضابقه ! !

وإنها نظرة بصيرة اتفق فيها الشاعران الفرنسي والمربي ،
لأن الناقد فنان قبل كل شيء ، وإن التقدير الأدبي موهبة
لا تتأتى ولا تستقيم كما يظن بعض الناس بدراسة النحو والصرف ،
واللغة والتريب ، والتوفر على البحث في بطون الكتب ، فإن هذا
كله لا يجدي ولا ينفع إذا لم تكن تمت فطرة سمحة ، ونفس مجلوة

وطبيعة موالية ، وعاطفة فياضة فنانة ، وإن العلم مهما بلغ مقداره
لا يجدم في الفطن الخفة ، ولا يقوم الشاعر الموهبة . وباضمة
الأدب ، وبإخساره الفن إذا ما جمدنا في تقديرها على أوضاع أهل
اللغة ، واعتبارات علماء البلاغة . ولممرك إلا ، أي حد تفيد هذه
الاشياء في التقدير الفني لقول الطغرائي مثلاً يصف شجوة حماسة
سمياً تنوح وهو غريب بالعراق :

أبيكية صدحت شجراً على فنن
فأشملت ماخبا من نار أشجاني
ناحت وما فقدت إنفاً ولا فجت
فذكرتني أوطاري وأوطاني
طليفة من إيسار المم ناعمة
أضحت تجدد وجد الموثق الماني
تشبهت بي في وجدتي وفي طربي
هيبت ما نحن في الحالين سيان
ما في حشاها ولا في جفنها أثر
من نار قلبي ولا من ماء اجفاني
يا ربة البانة النساء تحضنها
خضراء تلتف أعصانا بأغصان
إن كان نوحك إسماداً لنترب
ناه عن الأهل ممنوع بهجران
فقارضيني إذا ما اعتادني طرب
وجدت أوجد وسلواناً بسلوان
أولا فقصر كحقي أستعين بمن
بمنيه شأني وبأسو كأم أحزاني
مأنت مني ولا يمتنيك ما أخذت
مفي الموموم ولا تدبرني ما شأني
كلني إلى الفيم إسمادي فإن له
دسماً كدمي وإرانا كأراني
أو كقول ابن الجهم :

وارحنا للغريب بالبلد النسي - ازح ماذا بنفسه صنما ؟
فارق أحبابه فما انتقموا بالعيش من بملده ولا انتفما
يقول في نأيه وفي غر بته : عدل من الله كل ما سندا !
أو لهذه القطعة التي نقت بها حافظ وقد عبر بدار كانت مدرجة
لهوه ، وملب شبابه ، فلما رآها قد غيرت معالمها الأيام حتى
خفيت عليه جاشت نفسه بالشعر فقال :

كم مر بي فيك عيش لست أذكره
ومر بي فيك عيش لست أنساه
ودعت فيك بقايا ما علفت به
من الشباب وما ودعت ذكراه !
أهفو إليك على ما أقرحت كبدي
من التباريح أولاه وأخراه
لبسته ردموع العين طيمة
واننسى جياشة والقلب أواه
فكان عوني على وجد أكا بده
ومر عيش على إذلات ألقاه
إن خان ودي صديق كنت أحبه
أوخان عهدى حبيب كنت أهواه
قد أرحص السمع ينبوع الفنا بيه
والهفتي ونضوب العيش أغلاه

كم روح الهمع عن قلبي وكم غملت

منه الموابق حزناً في حناياه
لم يدر ما يده حتى ترشفه فم الشيب على رغبى فأفناه

قالوا : تمحورت من قيد الملاح فمش

حرراً في الأسر ذل كنت تأباه
فقلت : يا ليتني دامت سرامته ما كان أرققه عندي وأحناء
بدلت منه بقيد استأذنته وكيف أقلت قيدياً صاغه الله ؟
أسرى الصباية أحياء وإن جهدوا

أما الشيب في الأموات أسراء
فهذا شعر حى نابض ، يتفجر بالمواطف ، ويفيض بالأحاسيس
حتى لتلمس فيه من ذلك أجساماً حية ... وإنه لنمط أعلى من الفن
الغالب على الأيام ، الباقى على الدهر ، ولكن ترى ما ذا تكون
قيمة هذا الشعر إذا ما وقف ناقد في تقديره عند قواعد اللغة
واسمعه ، وتناوله بمقاييس « التورية والجناس ، والمقابلة والطياق ؟
إنه لا شك ينحط به سافلاً سافلاً حتى الحضيض ، وإنه لا شك
سيرتفع عليه عالياً عالياً بسفاهة الطبقة النازلة من أمثال
ابن النبيه والشاب الظريف كما رفع صاحب العقاد « ابن نيانه
بشعوذة وألصقيه على ابن الرومي في لوعته وأسائه » ومن هنا
تنقلب الأوضاع ، ويندو النقد وهو أداة جود بالأدب ، وخذلان
للقرائح الصخرية . وعامل تهقير يرجع بالفن إلى الوراء أضاعف
ما يجب أن يتدفع به إلى الأمام !

فالناقد الحقيقي هو من حكم مثله وقلبه كما يقول شاتوبريان
واستغل منطقته وعواطفه في تقدير ما يقرأ ، حتى يستطيع أن
يقدر التقدير الصحيح ، وأن يخدم الحقيقة الفنية والجمال البياني
وإلا فهو قاشل في مهمته ، يجنى على الفن ، ويبخس النبوغ ،
ويكشف نفسه ويمرضها للسخرية ، وكأن العلماء قد أدر كوا تلك
الحقيقة إذ أنكروا على « للملين » والرواة أن يكون لهم في نقد
الشعر والحكم عليه ، فكثيراً ما تتأدر الجاحظ عليهم من جراء
ذلك حتى اتخذهم مادة لبثه ومضاحيكة ؛ وكثيراً أيضاً ما نالهم
الذمراء أنفسهم بقوارص للكلم ، وأليم المهجاء . ولعل من أفكده
ما لهم في ذلك قول شبيد الله بن عبد الرحمن الأهوازي في معلم
أزرى على شعره :

يبيب الأحمق للمرور شعري وهجوى في بلاده يسير
ويزعم أنه نقاد شعري

على نفس البحترى حتى عدما إحدى نوايب الدهر إذ يقول:
الحمد لله على ما أرى من قدر الله الذى يجرى
ما كانت ذا العالم من عالمي يوماً ولأذا الدهر من دهرى
يمرض الحرمان في مطايي ويحكى الخساز في شعري
رند كان الخساز كما وصفه ياقوت راوية مكرراً موصوفاً بالثقة
أخذ عن أبي الحسن المدائني والمتابي ، فاحسب البحترى أنكر
عليه النظر في الأدب والحكم على شعره من جهة اطلاعه وعلمه ،
ولكنه لا شك أنكروه عليه من جهة استمداده التقى ، ورحابة
عواطفه ، وسماحة طبعه . ولست أدري ما ذا كان يقول أبو عبيدة
لو أتت به الأجل ورأى الأدب يحتمل الرهن كل الرهن من
« خسازين » كثيرين يتولون دراسة الأدب في مدارسنا المصرية
وهم كجاعة المعلمين في قرطبة الذين تحدث عنهم ابن شهيد في قصة
التوايع والزوايع ينحتون عن قلوب غليظة كقلوب البمران
إلى فطن حمتة ، وأذهان صدئة ، لا منفذ لها من الرقة ولا مدب
لها في شعاع البيان ، وكل بضاعتهم من الأدب كلمات من غريب
اللغة ، وبعض مسائل من النحو والصرف وعلوم البلاغة لا يفهمون
منها إلا ما يفهم الفرد الجاني من الرقص على الأيقاع ، والزمر
على الألحان . فهم يتكيفون النواحي العاطفية في الأدب ، ويقفون
في تقديرهم عند الصور الجافة من الفن البياني يقدمونها لتلاميذهم
يوجد التلاميذ في تناولها غصاصة دونها غصاصة المريض من تناول
النواء ، الأمر الذى ألقى في روع أولئك الساكنين أن الأدب
العربي كله نمط واحد من السكازة والجفوة والتشوفة والنشأة
والثقل ، فانصرفوا عنه يطلبون متاعهم العقلي ولتتهم العاطفية
في رياض الآداب الغربية ، فإذا ما جلست إلى الواحد منهم وجدته
من العلم بتلك الآداب يمكان ، من حين لا تجده من الأدب
العربي على بال ، وتلك حال لو دامت فتكون الشعر المستطير ،
والخطر الكبير

محمد فسيهي عبد اللطيف



هو الحادى وليس له بغير
وفى هذا النمط ماروى من أن أباجعفر
الخنزاز عاب شعراً للبحترى ، فكانت كبيرة